

السخرية في رواية "ذاكرة الماء" لواسيني الأعرج

Sarcasm in the novel "Memory of Water" by Wasini Laredj

عمار أيت عيسى*

جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية

ammam.aitaissa@univ-bejaia.dz

تاريخ القبول: 2025-12-15

تاريخ الإرسال: 2025-10-28

ملخص:

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى التعريف بإحدى الكتابات المعاصرة التي زخرت بها الأعمال الأدبية في العقود الأخيرة، والمتمثلة في الكتابة الساخرة، أو استخدام الأسلوب الساخر في الكتابة الأدبية، وسنحاول اكتشاف الأهمية التي يحظى بها هذا الأسلوب في جنس أدبي بعينه، ألا وهو الرواية، بوصف هذه الأخيرة هي الجنس الأدبي الأكثر ذيوفا في عصرنا، ولهذا سنتخذ من رواية "ذاكرة الماء" للروائي الجزائري واسيني الأعرج أنموذجا للتحليل، حيث ستتضح لنا - عبر استنطاق هذه الرواية - المكانة التي حظي به الأسلوب الساخر ودوره في رسم الملامح العامة للموضوع والغاية منه، ومدى تحقيق الأهداف التي دفعت الروائي إلى الاستنجاد به في رسم ملامح عمله الإبداعي.

الكلمات المفتاحية: سخرية؛ رواية؛ أسلوب؛ جنس أدبي؛ كتابة.

Abstract:

Through this study, we seek to introduce one of the contemporary writings that have abounded in literary works in recent decades, which is represented in writing with sarcasm, or the use of the sarcastic style in literary writing. We will try to discover the importance that this style enjoys in a specific literary genre, which is the novel, considering that the latter is the most popular literary genre in our time. Therefore, we will take the novel "Memory of Water" by the Algerian novelist Wassini Al-Araj as a model for analysis by examining this novel, it will become clear to us the status of the satirical style and its role in drawing the general features of the subject and its purpose, and the extent to which the goals were achieved that prompted the novelist to seek help from it in drawing the features of his creative work.

Keywords: sarcasm; novel; style; literary genre; writing.

* - المؤلف المراسل.

يمكن تعريف السخرية بأنها "أداة لإعلان موقف رافض، انتقادي بالنسبة للأوضاع الراهنة في جميع المجالات [...]، ومهاجمة هذه الأوضاع، والكشف عن أسباب ترددها، وذلك عن طريق التركيز على الأخطاء السلطوية وسوء تصرفها"¹، فعدم الرضا على وضع ما هو الدافع إلى السخرية، وفي العادة يكون الساخر يحتل موقف الضعف بينما يواجه سلطة أكبر منه هي المسخور منه، حيث يعمل الساخر على كشف هفوات وأخطاء المسخور منه.

تحيط بالسخرية مجموعة من الألفاظ في اللغة العربية التي نجدها مبثوثة في المعاجم اللغوية منذ القدم، وهي تندرج في حقيقة الأمر كلها تحت هذا الموضوع، إذ نجد مثلاً ألفاظاً من قبيل: الاستخفاف، المداعبة، التهكم، التعريض، الهزأ... إلخ. رغم اختلاف هذه الألفاظ فيما بينها في المعاني الدقيقة، إلا أنها غالباً ما ترد من أجل التعبير عن الموضوع الرئيس وهو السخرية.

يُعد أسلوب السخرية من الأساليب الموظفة في الأدب العربي المعاصر بكثرة، حتى وصل الأمر ببعض الأدباء إلى أن جعلوا منه أسلوباً يسمّ طابعهم الخاص في الكتابة، وذلك نظراً لتماشي السخرية مع نزعة السخط من الأوضاع المزرية التي تعيشها الأمة، ولقد ظهر أسلوب السخرية عند كثير من المبدعين، فلما وجد الأديب نفسه محاصراً بواقع مُر يفرض نفسه على الأمة، لم يتقبله، لكنه في الوقت نفسه لم يملك حياله لا حول ولا قوة لتغييره، اتخذ السخرية سلاحاً يواجه به هذا الوضع، لعلّه يخفف من الألم والغضب الذي يشعر بهما تجاهه.

إن الاطلاع على النصوص الأدبية التي وردت فيها السخرية، يدفعنا إلى أن نميّز ونضع فرقاً جوهرياً "بين الأدب الساخر كمفهوم شامل سواء على مستوى الشكل أو المضمون وبين عنصر السخرية الذي يمكن أن يوظفه الأديب في عمل من أعماله بالإضافة إلى عناصر

¹ : محمد صالح شريف العسكري والأعظم بيكدلي: سخرية الماغوط في العصفور الأحدث، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد 8، طهران – إيران، 2008، ص 54.

أخرى"²، حيث إن النوع الأول تكون فيه السخرية عماد العمل الأدبي، بينما تكون في النوع الثاني عنصرا يتحد وينظم إلى بقية العناصر التي تشكّل العمل الأدبي ككل

1- طبيعة السخرية والغرض منها:

تصدر السخرية من شخص آلمه الوضع، فيحاول بانتهاجه أسلوب السخرية التخفيف من آلامه، فهي إذن محاولة لتحرير "الإنسان من فرط الألم والهموم ويحاول التقليل من ضغط الشدائد"³، والتنفيس عن الحالة اليائسة والألم الداخلي لصاحبها، حيث إن النظر إلى الموضوع بعين ساخرة، هو في الحقيقة مقاومة غير مباشرة أو هو رفض مبدئي للشيء، وهذا التعبير غير المباشر عن الرفض هو الذي يجعل صاحبها يجد متنفسا عبرها يخرجها من حالة الرفض دون الجهر، فبمجرد التعبير عن الرأي المعارض أو المختلف، يجد الإنسان نفسه قد خفف من حجم الضيق الذي يعيشه.

يمكن الجزم أن الأديب عندما يلجأ إلى السخرية، يكون وراءه غاية يسعى إليها، وهذه الغاية مزدوجة، إذ ترتبط من جهة بذاته، وهذا ما يتحقق حين يجد متنفسا من القهر الذي يسيطر عليه، ومن جهة أخرى ترتبط السخرية بمحيط الأديب، حيث إن هذا الأخير يتشكّل من الناس المستهدفين، إذ يسعى الأديب إلى "تنويرهم ومساعدتهم على تكوين رأي تجاه قضية معينة تهمهم وتؤثر في حياتهم"⁴، وهذا ما يجعل الحكم على أثر السخرية في الأدب مرتبطا بمدى قدرة الأديب على تكوين الوعي عند الناس باللجوء إلى أسلوب السخرية، وذلك لأن "فن السخرية يربي في الناس ملكة النقد، ويوقظ فيهم الوعي بأخطائهم وحماقاتهم"⁵، ويحثهم على تجاوزها والسير قدما نحو التغيير الإيجابي.

وتشترك السخرية مع الهجاء في الغرض والأهداف، حيث يتشابهان "من ناحية الوظيفة، ولكنهما يفتقران من ناحية المادة، أو الطبيعة التي يشتمل عليها كل منهما، فالهجاء طريقة

² : نبيل راغب: الأدب الساخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، مصر، 2000، ص09.

³ : محمد صالح شريف العسكري، أعظم بيكدلي: سخرية الماغوط في العصفور الأحذب، ص55.

⁴ : نبيل راغب: الأدب الساخر، ص10.

⁵ : المرجع نفسه، ص23.

مباشرة في الهجوم على العدو، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة⁶، فوظيفتهما واحدة وهي التشميت، لكنهما يختلفان في طبيعتهما والمادة اللغوية لكل منهما، فالهجاء يتوجه بطريقة مباشرة إلى كشف مساوئ المهجو بألفاظ وعبارات مسيئة، في حين تكون السخرية نقدا غير مباشر، يعتمد على التلميح أكثر منه على التصريح من أجل كشف مواطن العيب والخلل باستخدام عبارات تنم عن الرفض.

2- السخرية في رواية "ذاكرة الماء":

يستلهم واسيني الأعرج أحداث روايته "ذاكرة الماء" من الواقع الجزائري الذي تلازم مع تسعينيات القرن العشرين، أو ما يعرف بالعيشية السوداء، وما ترتب عنها من أحداث مأساوية عاشها الشعب الجزائري طيلة هذه المرحلة، وهذا بسبب الصراع على السلطة. صراع بدأ سياسيا، وانتهى بحمام من الدم وبمشاهد بشعة يعجز اللسان عن وصفها نتيجة القرف الذي سينتابه بمجرد النظر في تفاصيلها، حيث إن الشعب الجزائري وجد نفسه يدفع تكاليف فاتورة صراع دموي على السلطة بين أبناء الوطن الواحد.

غالبا ما سعى الأدب إلى التعبير عن الواقع، ولكن الأسلوب المعتمد من أديب إلى آخر كان دائما مختلفا، حيث إن كل أديب يختار الطريقة المواتية في معالجة موضوع نصه الأدبي، وهنا تتجلى أهمية التقنيات الأسلوبية التي يوظفها الأديب، ولا شك أنه سيوفق في نصه إذا ما أحسن اختيار هذه الإجراءات الأسلوبية، لأنها بالضرورة ستؤثر في القارئ الذي سيقرا في نهاية المطاف النص الأدبي، بصفته العنصر المستهدف من طرف الكاتب.

اعتمدت الرواية على أسلوب السخرية في عدة مواضع، حيث لم يمنع موضوع العنف المسيطر على الرواية، بصفة عامة، الروائي من الاستنجاد بالسخرية كأسلوب للتعبير عن وضع الشعب الجزائري سنوات التسعينيات، ووضع الجزائر ككل في هذه المرحلة الحرجة التي مرت بها البلاد، إذ إن جدية الموضوع الرئيس المتمثل في التعبير عن العنف لم يمنع الكاتب من أن يضمّن نصه خطابا ساخرا من حين لآخر، رغم التعارض الذي قد يبدو بين موضوع النص وطبيعة السخرية باعتبارها تحمل متلقها نحو الجانب الهزلي.

⁶ : نعمان محمد طه أمين: السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة، ط1، الأزهر - مصر، 1978،

إن قدرة الروائي على المزج بين هذين العنصرين الذين يبدوان متعارضين، هي التي حققت نصا روائيا قادرا على فضح الأسباب الخفية التي كانت وراء الوضع المزري الذي مرّت به البلاد في هذه المرحلة الحساسة، حيث استطاعت هذه الرواية أن تفضح المسؤولين الحقيقيين الذين أوصلوا البلاد إلى هذا النفق المظلم، بسبب ما أقدموا عليه من أفعال شكّلت السبب الرئيس في الوضع.

هنا نطرح الإشكالية الآتية: كيف تجلّت السخرية في الرواية؟ وما هو تأثيرها على الموضوع العام الذي عالجه الروائي؟ وهل وفّق في الوصول إلى الغرض الأساسي الذي من أجله اعتمد الأسلوب الساخر؟

1.2. المقاومة بالسخرية:

صدرت عبارات السخرية من الشخصيات الساخطة والمتمردة على الوضع المزري الذي تتخبط فيه البلاد، وفي الغالب كانت الشخصيات التي أسند إليها الروائي عبارات السخرية تنتمي إلى الطبقة المثقفة، وذلك لسببين أساسيين، أولهما يتمثّل في كون طبقة المثقفين عارفة وواعية بحقيقة الأزمة والمشاريع التي كانت وراءها السياسات التي اعتمدتها بعض الأطراف، أما السبب الثاني فيتمثّل في كون الطبقة المثقفة لم تجد من يسمع صوتها، ولم تجد ما تواجه به الواقع، وفي الوقت نفسه كان أفرادها مستهدفين من قبل القتلة لسبب وحيد، يتمثّل في وعيهم بالحقيقة، فلم تمتلك الطبقة المثقفة وسيلة حتى للدفاع عن نفسها، فنسب إليها الروائي خطاها ساخرا لتحتمي به من البطش المحيط بها والواقع المزري الذي لم ترض به، ولكي يجعلها متنفسا يخفف عنها غضبها. كما انتهج الكاتب أسلوب السخرية لكي يفضح الأطراف المتسببة في الوضع المزري الذي سيطر على البلاد، لما يشعر به هو الآخر من آلام تنتابه تجاه ما يحدث في بلده.

ورد أسلوب السخرية في عدّة مقاطع من الرواية، وغالبا ما جاء على لسان المثقفين، كما سبق وأن أشرنا، ومثال ذلك ما نجده في خطاب السارد الممثل لشخصية البطل الأستاذ الجامعي، معلقا على حالة الشعب العبيثية، ومستاء من عدم المبادرة وتركه غيره يقرر في مكانه، "...هذا الشعب الذي يتأكل مثل بناياته وطرقاته ومؤسساته صار غاشي، لا يعرف شيئا أصلا لم يكن معنيا بما كان يدور في محيطه، فهو سيرفع راية المبايعة لأوّل منتصر، لقد

شوّه من الداخل حتى صار مثل القصبّة الفارغة"⁷، يتخذ السارد في هذا المقطع من أسلوب السخرية وسيلة لوصف حالة الشعب التي تُشعره بالألم والغضب في الآن نفسه، فيلجأ إلى سخرية ممزوجة بالمفارقة، فبدل أن يكون الشعب هو سيد نفسه، استسلم وسلّم مصيره لمن يتصارع من حوله، وحالة الشعب هذه لم ترق للمثقف إطلاقاً، لأنّه يرى أنّ الأولى بالشعب أن يكون صاحب القرار في الأمور التي تخصه.

2.2. السخرية من السلطة:

يمتد استخدام أسلوب السخرية على طول الرواية، ولقد نالت السلطة الحاكمة نصيبها، حيث جعلها الكاتب صاحبة الحظ الأوفر، وذلك من أجل فضحها واتهامها بالعجز في تسيير البلاد وفي تحقيق مطالب المواطنين البسيطة، لكن العجيب في ذلك أنّها في الوقت نفسه كانت تسعى بشتى الوسائل إلى البقاء في كرسي الحكم، حيث اتخذت "من نفسها حقيقة متبناة، توجب الطاعة والخضوع"⁸، فمن جهة نجدها عاجزة ومن جهة أخرى لا ترغب في التنازل عن مكانتها كسلطة. تتجلى السخرية من السلطة الحاكمة في المقطع التالي مثلاً، أين طلب البطل من وزارة الداخلية استرجاع بندقيته التي سلّمها لمصالح الأمن من أجل أن يدافع عن نفسه، لما تكررت التهديدات التي تصله من يوم لآخر، وعجزت هذه السلطة عن تحقيق الأمن له، لكن وزارة الداخلية ردّت عن طلبه بتبريرات بسيطة غير مقنعة تماماً، "على كل طلبت ردها لي (البندقية)، وما زلت أنتظر ردّ وزارة الداخلية...وعندما وصلتني رسالة وزارة الداخلية وقرأتها تساءلت، حقيقة إذا كانت لدي قيمة إنسان في هذه البلاد، قرأتها عدة مرات...، (نظراً لوضعية ترتيب الأسلحة فإنّه يتعذّر علينا في الوقت الحالي أن نعيد إليكم سلاحكم)"⁹، يسخر البطل في هذا الموقف من الرد الذي قُوبل به من وزارة الداخلية، حيث إنّ طلبه قوبل بالرفض، وأتى هذا الرفض بحجج وهمية لا يمكن تصديقها، وهذا ينمّ عن لامبالاة السلطة بأمن مواطنيها ولا بمصيرهم، ويطلق على هذا النوع من السخرية، "السخرية

⁷ : واسيني الأعرج: ذاكرة الماء محنة الجنون العاري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، دمشق، سورية، 2008، ص52.

⁸ : سعد محمد رحيم: أنطقة المحرم المثقف وشبكة علاقات السلطة، دار ميزوباتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بغداد العراق، 2013، ص43.

⁹ : واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص77.

بمحاولة التعليل والتظاهر بالتعليل تأييدا للمخاطب المسخور منه¹⁰، وذلك انطلاقا من كون هذا التعليل عبثي في حد ذاته ولا يمكن تصديقه، وهذه السخرية في هذا الموضع جاءت لكشف المستوى المتدني للسلطة.

يواصل الكاتب في استخدام أسلوب السخرية، وعلى لسان البطل دائما، فنراه يعلّق على ردّ وزارة الداخلية، عبر الرسالة التي استقبلها، والتي تبرر فيها رفضها إرجاع السلاح له، وذلك حين يعلّق على عبارات الشكر التي ختمت الرسالة، "من قال لهم أنني تفهمتهم ليشكروني، هل حياتي أنا المواطن الصالح جدا لا تستحق بعض البحث؟ ...، فهل أنا خطير لهذه الدرجة لتغلق الدنيا أبوابها على قلبي؟"¹¹، إن مجموع هذه الأسئلة الاستنكارية، تنم مرة أخرى عن سياسة عدم الاكتراث التي تعتمد عليها السلطة في حقّ المواطنين، وفي هذه الحالة، يسعى هذا النوع من السخرية "السخرية بالاستفهام"¹²، ويقوم أساسا هذا النوع من السخرية على طرح أسئلة استنكارية بغية تعرية الواقع وفضح المتسببين فيه.

يمكن القول إن السخرية من السلطة، أنت نتيجة الألم الذي يشعر به المثقف تجاه ما يحيط به من وضع مزرّ، والوعي بحقيقة الأشياء، إذ جعلها الكاتب دائما - كما رأينا - تصدر على لسان الشخصيات التي تمثل الطبقة المثقفة، وذلك لتعبّر عن الألم الداخلي الذي ينتابها وتفجر غضبها، تعبيرا عن انسلاخ السلطة عن أداء واجبها، وعن عجزها عن تحمّل مسؤولياتها تجاه المواطن والوطن الذي تحكمه، وهذا ما صنع نوعا من السخرية ممزوجة بالمفارقات.

3.2. السخرية الفاضحة:

يوظّف الكاتب أسلوب السخرية في الرواية لغاية أخرى، ويتعلّق الأمر بكشف مستوى بعض الشخصيات، وهذه الشخصيات غالبا ما كانت من أنصار التيار الإسلامي، حيث أنت السخرية على لسان الشخصيات المنسوبة للطبقة المثقفة دائما من أجل تعرية الزيف الذي

¹⁰: نعمان محمد طه أمين: السخرية في الأدب العربي، ص 51.

¹¹: واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص 77.

¹²: نعمان محمد طه أمين: السخرية في الأدب العربي، ص 49.

تتنكر فيه هذه الأطراف، التي تسعى لتحقيق مصالحها بشتى السبل المتاحة مهما كانت، تحت شعار "الغاية تبرر الوسيلة"، فلقد كان هوس الوصول إلى السلطة دافعا نحو اللجوء إلى كل ما يتبادر إلى الذهن من أجل بلوغ الغرض.

نرى في المقطع الآتي السارد يكشف الخُدع التي تستخدمها الجماعات الإسلامية لاستمالة قلوب الشعب وكسب المؤيدين، وذلك عبر استعانتها بالخطاب الديني المؤثر، فيسخر السارد من مستوى طبقات الشعب التي تصدّق هذا الخطاب الوهمي المليء بالخرافات، ويتجلى ذلك مثلا فيما جاء على لسان سائق سيارة الأجرة المؤيّد لهذه الجماعات، وذلك في الحوار الذي جمعه مع البطل، "...ياخي مقر الجماعة الإسلامية للإنقاذ، كان هناك اجتماع وطني، وربّي رضي عليهم، دايرين حالة في الطاغوت في جبال مليانة، حوَصر أحد المجاهدين في كل جهة بالدبابات، ما نقول لك مائة، وما نقول لك مائتين، كان بوحده. صلى صلاة الخوف ثم حمد الله على المصير وصرخ، قل ما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ثم حمل حفنة تراب ورماها على الدفعات الأولى من الدبابات، فجعلها كعصفور مأكول. ثم الدفعة الثانية والدفعة الثالثة، أما بقية الدفعات فقد استغفرت الله القدير لما رأت بعينها كراماته. والتحقت به وهي الآن تكون أهم كتائب الرحمان"¹³، تعمدنا إيراد هذا المقطع الذي جاء على لسان هذه الشخصية المتعصّبة للتيار الإسلامي رغم طوله نسيبا، وذلك من أجل أن نبين استخدام أسلوب السخرية من قبل الروائي، ففي هذا الموقف كان هدف السخرية هو كشف سذاجة وغباء شخصية السائق، حيث استطاع أن يصدّق هذا الخطاب الخرافي الذي يروّج له هذا التيار عن قصد، دون أن يفكر أو يشك في مصداقيته. لكن المسعى الحقيقي هو كشف سياسات الجماعة الإسلامية التي تقوم أساسا على الاعتماد على الخطاب الديني لصالح مشروعها الذي يهدف إلى الوصول إلى السلطة بشتى الطرق، ولو كان ذلك بتخدير عقول الناس بالخرافات.

¹³: واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص 98.

الخاتمة:

نستنتج في الأخير أن الكاتب استخدم أسلوب السخرية، وجعله غالبا يصدر على لسان شخصيات الرواية التي تمثل الطبقة المثقفة ليعبر عن ألم وغضب هذه الطبقة من المجتمع الذي تنتهي إليه هي نفسها، وعن عدم رضاها عن الواقع الذي تتخبط فيه البلاد، ومن جهة أخرى لم يكن لهذه الطبقة ما يمكن أن تقوم به من تغيير للوضع.

ليفضح الكاتب بشاعة المشهد المسيطر على البلاد سنوات العشرية السوداء، وظّف أسلوب السخرية، الذي ربطه غالبا بالثنائيات الضدية، وجعله أداة في يد الشخصيات التي تمثل الطبقة المثقفة، وذلك يقينا منه أنّها بقيت معزولة لا تملك في يدها لا قوة التغيير ولا قوة الدفاع عن نفسها لأنّها كانت مستهدفة، فأتى أسلوب السخرية لاستنكار الأوضاع المزرية التي تتخبط فيها البلاد على لسان شخصية المثقف، إذ جعله الكاتب بمثابة السلاح الذي تحتمي به أو على الأقل تدافع به عن نفسها من جهة، وتفضح حقيقة المشهد الضبابي السائد آنذاك من جهة أخرى.

إن استثمار الكاتب للسخرية بوصفها إجراء أسلوبيا، مكنه من فضح حقيقة الصراع على السلطة سنوات التسعينيات، ولمّح إلى الأطراف المتسببة في الوضع المزري والبشع الذي عاشته البلاد في تلك المرحلة، إذ اتهمها بطريقة غير مباشرة بأنها السبب الرئيس وراء كل ما ترتب من أحداث القتل والعنف التي عانى منها الشعب الجزائري طيلة عشرية كاملة، وهو ما يؤكّد أن أسلوب السخرية كان مسخرا لخدمة غرض بغية لدى الكاتب.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. واسيني الأعرج: ذاكرة الماء محنة الجنون العاري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، دمشق، سورية، 2008.

المراجع:

2. سعد محمد رحيم: أنطقة المحرم المثقف وشبكة علاقات السلطة، دار ميزوباتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 1، بغداد العراق، 2013.

3. نبيل راغب: الأدب الساخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة 1، القاهرة، مصر، 2000.

4. نعمان محمد طه أمين: السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة، الطبعة 1، الأزهر، مصر، 1978.

5. محمد صالح شريف العسكري، أعظم بيكدلي: سخرية الماغوط في العصفور الأحذب، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد8، طهران – إيران، 2008.